السيرة الذاتية/غواية الحقيقة في نموذجي:
" السجينة" و" حدائق الملك" لمليكة وفاطمة أوفقير

الأستاذة: نوال بن صالح
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

تمهيد:

كادت تنسينا– نحن الأكاديميين– كثرة الدراسات النقدية الاستمتاع بالنص الإبداعي نفسه، فصرنا حبيسي المناهج النقدية وآلياتها الإجرائية، ونسينا لذة القراءة الانفعالية التي تتولد تلقائيا. نحن لا ننكر ما للرؤى النقدية من لذة ومتعة، لكن تبقى لحظة اكتشاف النص تتمتع بخصوصية المقدرة على استكناه أعماقنا واستنفار قوانا واستفزاز ذاكرتنا وقناعاتنا سيما وإن تعلق الأمر بجنس أدبي شديد الخصوصية، إنه جنس السيرة الذاتية.

تعريف السيرة الذاتية:

يتفق جل المعنيين بالكتابة السير ذاتية: Autobiographie" أنها جنس أدبي استعصى على التعريف الواضح المحكم، نظرا لسببين رئيسين على الأقل: الأول يعود إلى شأن حداثة عهد هذا الجنس، والثاني هو نتيجة مباشرة للسبب الأول، و يعود إلى عدم توفر سنة راسخة في قراءة النصوص وتحليلها، وهي وحدها الكفيلة بأن تقود إلى تعريف واحد موحد يمكن أن يطمئن إليه جل النقاد"[(1)]

الحقيقة أنه عادة ما يقترن مفهوم النص الأدبي في عرف نقاد الأدب بمفهوم المتخيل الأدبي فهو الذي يحقق القيمة الأدبية، يرسخها ويدعم استقلالية النص بالقياس إلى الواقع الخارجي، وهو ما كرّس مقولة تعارض المتخيل الأدبي والواقع، وانجر عن هذا المفهوم المتداول القول بتعارض الملفوظين: الواقعي والتخييلي بناءً على أن ماهية الأول موقوفة على تصوير الواقع تصويرا أمينا، وصياغة الحقائق المتصلة به صياغة لا تداخلها أدوات التخييلية التي يلجأ إليها عادة الأديب، وإلا فقد الملفوظ الواقعي مصداقيته

وخرج عن الحدود التي تسمح بها وظائفه ويمليها نمط الإحالة الذي يركن إليه.[2]

وقد انعكست هذه التصورات السطحية في ماهية الخطاب السير ذاتي انعكاسا سلبيا، كشف عن حرج النقاد وتذبذبهم في تحديد موقع السيرة الذاتية من النمطين السرديين الكبيرين: النمط السردي الواقعي، والنمط السردي التخييلي، ففي أغلب الحالات يلحق خطاب السيرة الذاتية أجناسيا بالسرد الواقعي، و لكنه يعامَل في نفس الوقت في مستوى تحليل ملفوظه وتقويمه، معاملة السرد التخييلي بحجة أن المترجم لذاته عرضة لاستعمال أساليب التصوير الكفيلة بأن تطمس الحقائق والوقائع المعروضة.

وقد جعل فيليب لوجون Philippe Lejeune من العقد السير ذاتي مجرد عقد خارجي أو شكلي وظيفته الأساسية تكمن في تأسيسه لقراءة تميز بين السيرة الذاتية والرواية تمييزا خارجيا، الغاية منه تحقيق القيمة الأخلاقية الفاصلة بينهما لا غير.[3]

والحقيقة أن الخطاب السردي في السيرة الذاتية ينهض على بناء الحياة الفردية بناء دالا بحيث يُدعي الراوي إلى اختيار ما يراه صالحا من الوقائع والمشاعر المفيدة في الدلالة على المنعرجات الكبرى، أو تضاريس الحياة الشخصية التي يُراد تشكيلها في صورة حدسية قوامها الترابط الذي تفسر فيه لواحق الوقائع سابقاتها تفسيرا ارتجاعيا مقنعا. وهو مشروع يحتاج إلى ترابط عضوي بين الذاكرة والفكر واللغة قوامه جدلية الترابط وتضافر هذه العناصر الثلاثة على بناء مشروع الهوية الشخصية.[4]

تقديم المدونتين:

" السجينة" و" حدائق الملك" سيرتان ذاتيتان نالتا شهرة عالمية لامرأتين ارتبطتا بمصير واحد. إنهما مليكة ووالدتها فاطمة أوفقير. وبالرغم من أنّ السيرة الذاتية جنس روائي له خصوصية رواية قصة صاحبها، إلا أنّ السيرتين تتعالقان وتترابطان أشد الارتباط في محور التجربة الواقعية التي عاشتها المرأتان سويةً.

تروي السيرتان قصة أقرب ما تكون إلى الخيال، فلا يكاد القارئ يصدق أن ما يقرأ يمكن أن يكون قد حدث في الواقع بالفعل وفي القرن العشرين، إنها قصة عائلة الجنرال محمد أوفقير الذي قام بمحاولة انقلاب عسكري على نظام الملك الحسن الثاني في المغرب الأقصى في 16 من أغسطس من العام 1972. وقد كان الرجل الثاني في النظام يومها. بعد فشل محاولـــة الانقلاب أعدم الجنرال محمد أوفقير بخمس رصاصات استقرت

واحدة منها في صدغـــه الأيسر، و قُدِم لعائلته على أساس أنه مات منتحرا وفـــاءً للملك. يومها قرر الملك إنزال أبشع ألوان العذاب بعائلة الجنرال المتمرد، فذاقت العائلة ما هو أقسى من الموت في معسكرات الاحتجاز التي أُعدت خصيصا لاستقبال العائلة بعيدا عن أعين الناس وكان آخر هذه المعسكرات المرعبة معتقل" بير جديد" الذي قضت فيه عائلة أوفقير أكثر من إحدي عشرة سنة. تتكون العائلة المغضوب عليها من سبعة أفراد: الأم فاطمة شنا، والبنات: مليكة وماريا ومريم وسكينة والولدان: عبد الرؤوف وعبد اللطيف الذي كان يبلغ الثالثة من عمره يوم الاعتقال، كما ارتبط مصير امرأتين بمصير العائلة بمحض الصدفة خادمة العائلة حليمة وقريبة فاطمة عاشورا اللتين اقتيدتا مع العائلة إلى معسكرات الاعتقال بسبب تواجدهما في الوقت السيئ في المكان السيئ. تسعة أفراد ظلوا يتنقلون بين غياهب السجون إلى أن استقروا في مكان خارج التاريخ، إنه ثكنة" بير جديد" التي قبعت فيها العائلة بعد تنقل بين المعتقلات المختلفة دام أربع سنوات، إلى أن قررت العائلة تنفيذ خطة أقرب إلى قصص الخيال العلمي بالهروب المستحيل وكان ذلك بعد محاولة انتحار فاشلة. حفر أفراد العائلة نفقا تحت الأرض خلال ثلاثة أشهر بوسائل بدائية. و في جو من الخوف والجوع والمرض والحصار والرقابة الشديدة وعزل أفراد العائلة بعضهم عن البعض في زنزانات متفرقة، هرب الأبناء الأربعة: مليكة وماريا وعبد الرؤوف وعبد اللطيف في رحلة مليئة بالمغامرات والمواقف المستحيلة إلى أن وصل الأمر بالهاربين إلى طنجة بعد محاولات فاشلة لطلب اللجوء السياسي لدى بعض السفارات الغربية. وفي طنجة تتمكن ماريا من الاتصال بالصحفي الفرنسي:" ألان دو شافرون" بعد أن حصلت على رقم الإذاعة من سائحة فرنسية. روت له ماريا قصة العائلة المنسية وبعد إلحاح وعناء صدقها الصحفي وبلّغ الرئيس الفرنسي" فرانسوا ميتران" الذي كان يقوم بزيارة للمغرب. وبعد ساعات قليلة يلقى القبض على الهاربين بعد أن افتضح أمر العائلة التي بقيت رهن الاعتقال خمسة عشر عاما. وضعت العائلة بعد ضغوط منظمات حقوقية دولية تحت الإقامة الجبرية أربع سنوات، إلى أن يقرر الملك أخيرا إطلاق سراحهم بعد تسعة عشر عاما من الأسر.

غواية الحقيقة:

" تكتسب أتفه الأشياء حين تستعيدها عين الذاكرة، تلك الحيوية والرهافة

والأهمية التي تكتسبهـا الحشرات أثناء النظر إليهـا عبر زجاجـة مكبرة لا حدّ للبهـاء والتنوع"[5] وكاتب السيرة الذاتية أو راويتها يشعر بمقدار ما تكشف يومياته عن نفسه المعروضة في كتابه أنه يمتلك حقيقة لم يفهمها بعد أي شخص آخر، وهذا بحد ذاته هو دافعه إلى تسجيلها ومحاولة توصيلها.[6] لكن رغم ذلك يبقى بإمكاننا التساؤل: هل تسهم نوعية التجربة التي نتذكرها في صنع المتعة التي نشعر بها عند استرجاعها وعرضها؟

المؤكد أن نوعية التجربة التي مرت بها عائلة أوفقير بما فيها من مآس ومفارقات هي من يصنع هذا النسيج المحبوك قدريا والذي يثير دهشة المتلقي ومفاجأة القراءة مع علم القارئ المسبق بأنه بصدد قراءة قصة واقعية، إذا فغواية السيرة الذاتية مكمنها غواية الحقيقة نفسها التي ترويها السيرة الذاتية، حتى وإن كانت هذه الحقيقة حقيقة من وجهة نظر صاحبها. والحقيقة أن سيرة مليكة أوفقير في" السجينة" وفاطمة أوفقير في " حدائق الملك" تمارس الغواية بامتياز ذلك أنها ليست مجرد كتابة سير ذاتية وإنما هي كتابة لمرحلة هامة من التاريخ السياسي للمغرب.

غواية العنوان:

إن اختيار صاحب السيرة الذاتية للعنوان ينطوي على قصدية حيث يجيء معبرا عن القصة دلاليا أو متضمنا فيها. ولاغنى في السيرة الذاتية على عنوان يتميز به أو يؤطره فيشار به إلى النص فيصبح كالدال على مدلوله حقيقيا كان أم متخيلا، والعنوان قد يكون محورا رئيسا بل قد يكون أحيانا المفتاح الرئيس للبنية الدلالية العامة للسيرة كلها: " وإيجاز العنوان قد يختزل في عبارته النص مبنى ومعنى"[7]

في السيرتين موضوع الدراسة تختار مليكة(الابنة) عنوانا مباشرا شديد الإيجاز والكثافة، ينطبق بشكل دقيق على الوضع الذي عاشته المترجمة لسيرتها سنين طويلة، فتجربة السجن هي محور السيرة الذاتية بحيث تستحوذ على أحداث الطفولة جميعا. والعنوان يوحي بدلالات الأحداث مباشرة في" السجينة"، أما والدتها" فاطمة" فتختار عنوانا شديد التلميح والسخرية، عنوانا اختارته من لغة الثقافة السائدة آنذاك، إذ كان يطلق على سجون الحسن الثاني" حدائق الملك" والتي كان الملك ينفي وجودها على الدوام.

في العنوانات الفرعية تختار المرأتان جملا تتقاطع في دلالاتها، خاصة تلك المتعلقة بفترة السجن التي استمرت من 1972 إلى 1991. نجد عنوانات مثل:

السجينة	حدائق الملك
أنا والملك	في صحبة الحسن الثاني
سجن الأشغال الشاقة في بير جديد	في قبضة جلاد مفوضية بن شريف
الهروب	فرار اليأس
ما يسمى الحرية	تعلم الحياة من جديد

لكننا نلاحظ عناية بعنونة الأحداث منفصلة عن بعضها والاهتمام بالأحداث السياسية الكبرى أيام الحسن الثاني، بينما فاطمة تركز على فترة محمد الخامس الملك الأب فنجد أحداثا سياسية كبرى كقضية بن بركة حاضرة في سيرة فاطمة بينما تحضر أحداث أخرى في سيرة مليكة كانقلاب الصخيرات.

غواية التفصيلات:

في قصة كهذه تكون التفصيلات الصغيرة المهملة أهم من الأحداث الكبرى أحيانا. تروي مليكة في" السجينة" لحظة غريبة حدثت أيام سجنهم الطويلة منعزلين عن بعضهم البعض:" في ذلك الصباح حوالي الساعة العاشرة دخل الحراس زنزاناتنا لم يتلفظوا بكلمة واحدة كانوا يتحادثون بنظراتهم ويركزون عيونهم فوق الشبابيك الحديدية التي كانت فوق الباب المصفح... عندما خرجوا بدون كلمة واحدة بدأ كل واحد منا يعطي تفسيرا مختلفا حول غرابة تصرفاتهم، في اليوم التالي في الساعة الثامنة والنصف صباحا فتحوا كل الأبواب ودفعونا باتجاه الخارج. كنا نتمايل ونترنح، لم نعد نحسن المشي، الضوء كان يخدش أعيننا كدنا نجنّ من الفرح برؤية بعضنا البعض مجددا، إنها المرة الأولى منذ أعوام طويلة لقد تغيرنا كليّا منا من نما من نما وكبر ومنا من اقترب من الشيخوخة أو شاخ. لم تعد أمي تعرف فتياتها اللواتي كنّ صغيرات، تركت ماريا وسكينة وهنّ في الرابعة عشرة والخامسة عشرة وها هما امرأتان شابتان في الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرهما. أصبح رؤوف رجلا، قامته أشبه ما تكون بقامة أبي. وعبد اللطيف غدا شابا في السادسة عشرة من عمره، وأمي كعهدها ما زالت جميلة ولكن آثار المصائب والهموم والأحزان كانت واضحة عليها. شعر حليمة وعاشورا صار بلون

الرماد. غدونا جميعا كالجثث المتحركة، بقامات نحيلة هزيلة وبوجوه شاحبة ممتقعة وعيون محاطة بهالات زرقاء ونظرات تائهة زائغة، وبشفاه جافة ملتصقة وبشعر متساقط وبالكاد كانت سيقاننا قادرة على حملنا... حليمة كانت احتفظت بكسرة مرآة بكت بحرقة عندما نظرت إلى نفسها فيها لم تصدق أنّ هذا الشبح المرعب الذي يحدّق بها كان هي"[(7)] هذا اللقاء العجيب بعد سنين طويلة داخل السجن تم بمناسبة عيد العرش، والمفارقة أن العائلة سيما الأم كانت تتوقع عفوا ملكيا بالمناسبة. وبنفس الغواية البديعة التي تمارسها التفاصيل الدقيقة تروي فاطمة أوفقير في" حدائق الملك" قصة الهروب الكبير وكيف تمكنت الأسرة المنكوبة من حفر النفق:" حينما كنت أسمع من زنزانتي بناتي وهن يحفرن كان يتملكني خوف رهيب وكاسح، خوف يكمم الفم ويجففه خوف أبعد من الكلمات، لن يبارحني أبد الدهر، اليوم أيضا يكفيني أن أستعيد في ذهني تلك اللحظات لأشعر من جديد بالرعب الواهن نفسه يجتاحني، فلو باغتونا لما نجونا بالتأكيد. مع الرعب الذي يعتصر قلبي، كان عليّ طوال الليل أن أنقل أكياسا ثقيلة مليئة بالحجارة والحصى لأمررها إلى عبد اللطيف كي يودعها السقيفة. لازلت أتساءل من أين استطعت أن أجد القوة لنقل أكثر من خمسة أطنان من الصخور والتراب... كان يجب أن يسوى كل شيء بحلول الفجر وتعاد البلاطات إلى مكانها وتخبأ الأدوات ويخفى التراب. لم تعد لدينا ساعات لمعرفة الوقت فقد انتزعت منا، ولكن حينما كنا لا نزال نملك الراديو كان بإعلانه الساعة الرابعة صباحا، ينهق حمار في حقل مجاور في توقيت أكثر دقة من الساعة. كان ذاك النهيق بمثابة إشارة لنا. تطلب منا شق النفق ثلاثة أشهر من جهود تفوق قدرة البشر، ثلاثة أشهر من الجحيم المحفوف بخوف دائم كان يسبب لنا الاختناق والمرض"[(9)]

غواية المفارقة القدرية:

تتدخل مفارقة الأقدار Ironie du sort لتجعل الإنسان عاجزا عن مجابهة الأقدار في قوتها وفرضها لواقعها مهما حاول الإنسان تجنبها. والمفارقة القدرية في السيرتين تتجلى في كون كل من المرأتين عاشتا فترتين من حياتهما على طرفي النقيض من حيث المكانة الاجتماعية والبحبوحة المالية، فمن حياة القصور إلى حياة الجحور، هكذا نقل القدر مليكة من قصر الحسن الثاني الذي كانت تحيى فيه حياة الأميرات بعد أن تبناها محمد الخامس لتكون رفيقة لابنته لالا مينا، نقلها القدر فجأة إلى غياهب السجون

ومعسكرات الاعتقال كي تحيى حياة الموت أرحم منها، تنتقل مليكة في مفارقة قدرية عجيبة من علياء الترف إلى درك الجوع وشظف العيش، من لباس الحرير والتحلي بالماس إلى العري والحرمان طيلة سنين السجن، وكذلك فعل القدر بفاطمة شنا ابنة الشريف البربري وزوجة الرجل الثاني في النظام والتي لم تعرف الحرمان في حياتها الأولى بل عاشت حياة الأميرات فكانت تتمتع بالسلطة والمال وتسافر في بقاع الأرض، وتلبس من أشهر دور الأزياء الفرنسية وتملك الأراضي والفيلات والقصور، يخطب الجميع ودها فجأة يتحول مجرد ذكر اسم عائلتها إلى شبهة يهرب منها جميع من كان يدعى بالأصدقاء وتفقد كل شيء: السلطة والمال والمكانة الاجتماعية والأهم من ذلك الحرية. في السيرتين تروي مليكة وفاطمة المرحلة الأولى قبل انقلاب الأحداث بكثير من الحنين والحسرة. تقول مليكة تحت عنوان:" قصر سيدي(1958/ 1969):" لم يشأ محمد الخامس أن تنشأ ابنته المفضلة في أجواء القصر الخانقة لذا أمر بتجهيز فيلا ياسمينة لتقيم فيها، هناك كل شيء مصمم بشكل رائع وبمنتهى الفخامة والكمال: الأبهة والجمال والدعة والهدوء كل ما تحلم به تجده ماثلا بين يديك. الحلم هناك يصبح حقيقة، وكأنك تعيش في بلاد العجائب أو إحدى قصص الخيال. في تلك الأجواء السحرية الفاخرة تعلمت كيف أصبح أميرة"[10] وبالمقابل تروي مليكة لحظة قاسية من لحظات الضعف الإنساني، إنها لحظات الجوع التي عانتها العائلة طيلة سني السجن تقول:" في أحد الأيام، بينما كنت منهمكة كالعادة بتفكيك القطع الكرتونية، لمحت الفتيات وهن على أربع يلحسن فتات الخبز اللاصق بزواياه، منذ تلك اللحظة وضعت قانونا لهن يقضي بتخصيص يوم لكل واحدة منهن لفعل ذلك بانتظار أن يأتي دور الأخرى في يوم آخر... لم نعرف أثناء احتجازنا في بير جديد ماذا يعني البيض الطبيعي، كانت القشرة الخارجية خضراء اللون وفي داخلها سائل أسود اللون أيضا تنبعث منه رائحة كريهة تشمئز منها النفس. كنت أضعها في وعاء بعد أن أكسرها وأتركها طوال الليل لتهويتها ثم أقليها بالزيت... كم كنا نلهث الفتات نأكل نلحس، نمسح لا نبقي ولا نذر. إذا فرغ أحد من حصته قبل الآخر كنا لا نتوانى عن التهام ما بيده من طعام بعيون الحسد"[11] تروي فاطمة أوفقير المكانة التي كانت تحظى في قصر الملك قبل الانقلاب وجرأتها أمام الحسن الثاني:" كان الحسن الثاني متعجرفا جدا إلى حد أن حاشيته كانت غالبا ما تتجنب أن تطرح أمامه القضايا الشائكة جدا. أما أنا فلم

أكن أتردد أبدا في أن أنقل إليه ما يقوله رعاياه عنه. فالقادة في أبراجهم العاجية لا يعرفون أبدا الحقيقة... وأتذكر نكتة شائكة في الشارع المغربي ورويتها له، تقول النكتة: إن سيدة مدقعة الفقر، أنجبت ثلاثة توائم فذهب الملك لزيارتها ويسألها عن الأسماء التي أطلقتها على أطفالها الثلاثة: الأول سميته الحكومة والثاني الشعب، والثالث الحسن الثاني، فسأل جلالته: أين هم؟ وردت الأم: الحكومة ترضع، والشعب يبكي، والحسن الثاني نائم... "[12]

أما بعد الاعتقال فتوري فاطمة سخرية الأقدار بمصيرها ومصير أبنائها:" في الواقع كان لا بد من إخفائنا لأنه كان من المستحيل تلفيق قضية ضدنا أو توجيه محدد لنا، أثناء تحقيقهم الدقيق والمفصل لم يجد جواسيس الحسن الثاني أي شيء ملموس يدعموا به ملفاتهم أو يدعم تقاريرهم. وقد برر إبعادنا العاجل رسميا بالحرص على حمايتنا فإن بقينا في المدينة، قد نتعرض لخطر أن يسحلنا السكان في الشوارع، وكانت هذه ذريعة مثيرة للسخرية..."[13]

الخاتمة:

وأنا أقرأ السيرتين تذكرت الحكمة التي تقول:" الحاكم كالنار إن اقتربت منه تحترق وإن ابتعدت عنه تبرد" هكذا كانت سيرتا مليكة وفاطمة أوفقير وقصتهما مع الملك وبقدر غرابة هذه العلاقة بقدر ما كانت سيرتا المرأتين غريبة ومليئة بالمفارقات. وربما لم تلق السيرة الذاتية في ثقافتنا العربية الاهتمام الكافي من قبل الدارسين والنقاد سيما العناية بجانبها الجمالي وعناصرها الفنية. فإلى جانب تميز هذا الجنس الأدبي البديع بخصوصية رواية الحقيقة، فإنه لا يمكنه أن يتخلى عن عنصر الخيال ذلك أن الحقيقة التي يرويها المترجم لذاته هي حقيقة من زاوية رؤاه الخاصة ومن هنا يلتبس الخيال بالحقيقة على الأقل من الناحية الأسلوبية.

الهوامش:

(1) جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث/ بحث في المرجعيات، مركز النشر الجامعي، تونس 2004، ص: 206.

(2) المرجع نفسه، ص: 207.

(3) Ph Lejeune: Lautobiographie en France Paris Armand colin 1971 p: 128.

(4) ميري ورنوك: الذاكرة في الفلسفة والأدب، تر فلاح رحيم الحيدري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1 2007، بيروت، ص: 171.

(5) المرجع نفسه، ص: 183.

(6) سلمان كاصد:عالم النص/ دراسة بنيوية في الأساليب السردية، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، 2003، ص: 185.

(7) مليكة أوفقير ميشيل فيتوسي تر: غادة موسى الحسيني، دار الجديد، بيروت، ط6، 2006، ص: 227.

(8) فاطمة أوفقير: حائق الملك/ أوفقير والحسن الثاني ونحن، تر حسين عمر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2 ،2009، ص: 201.

(9) المرجع السابق، ص: 39.

(10)فاطمة اوفقير: حدائق الملك، ص: 201.

(11)مليكة أوفقير، السجينة، ص: 39.

(12)المرجع نفسه، ص: 199.

(13)فاطمة أوفقير: حدائق الملك، ص: 82.